# التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها "دراسة تاريخية"

بوسليماني عبد الرحمان

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة سكيكدة – الجمهورية الجزائرية



**الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

بوسليماني عبد الرحمان، التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها: دراسة تاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع عشر؛ سبتمبر ٢٠١٢. ص ٤٩ – ٥٥.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

خمسة أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢


## ملخّص


تحاول هذه الدراسة إبراز الدور الكبير للثقافة العربية الإسلامية وتأثيرها على حياة الإفريقيين في الإقليم الشرقي والغربي من إفريقيا جنوب الصحراء، من خلال جهود العلماء والمجددين والفقهاء الذين ساهموا بقدر كبير في نشر هذه الثقافة. وكان أعظم انتشار للإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء في فترة ما قبل الاستعمار هو الذي حدث في القرن التاسع عشر، حيث يرجع ذلك في جانب منه إلى ما حدث حين هب دعاة الإسلام المكافحين الذين ساءتهم التسويات غير المقبولة التي جرت بين الإسلام وبين الديانة الإفريقية التقليدية، فأعلنوا حروبًا مقدسة تستهدف رد العقيدة الإسلامية الصحيحة، كما نتج عن هذا ظهور ثقافة جديدة، إذ ولدت الثقافة الهوسوية والسواحيلية من الامتزاج الذي حدث بين الثقافة الإفريقية والثقافة العربية الإسلامية.


## مقدمة

أثبتت أدلة كثيرة أن إقليم غرب إفريقيا –وبالتحديد بلاد البرنو كانم وبلاد الهوسا سابقًا– لم يشهد اتصالاً مباشرًا مع العرب المسلمين بنفس ذلك القدر في شرق إفريقيا، كما لم تصل الدعوة الإسلامية إلى بلاد الهوسا بصورة ملموسة إلا في منتصف القرن الخامس عشر. ولكن رغم ذلك تميز التاريخ الإسلامي لهذا الإقليم بتطور مبكر لمراكز إشعاع فكري قوامها نخبة من العلماء المحليين برعوا في التأليف باللغة العربية، من أمثال دان مسني (ابن العارف) ودان مرينا (ابن الصباغ) وجبريل بن عمر وعلماء الخلافة الصكتية وبقية العقد الفريد، وقد خلَّف لنا هؤلاء العلماء المئات من الأعمال القيمة باللغة العربية وفي اللغة العربية نفسها.

وفي الجانب الآخر، نجد أن العرب قد عرفوا طريقهم إلى سواحل شرق إفريقيا قبل ظهور الإسلام، ثم ترسخت أقدامهم فيها على مر الأزمان حتى صار جزء من الجزيرة العربية في حقبة من التاريخ يحكم من زنجبار.[١] ولا شك أن للموقع الجغرافي لهذا الإقليم دورًا هامًا في هذا الأمر، إذ لا يفصل بينه وبين الجزيرة العربية مسافة قصيرة (مضيق باب المندب). وقد ترتب على ذلك انتشار الثقافة العربية الإسلامية على امتداد هذه السواحل والتي غطت جل مناحي الحياة، وانعكست في اللغة السواحيلية وآدابها على وجه الخصوص.

## أولاً: نبذة عن تاريخ الوجود العربي والإسلامي في إقليم غرب إفريقيا

كان أعظم انتشار للإسلام في فترة ما قبل الاستعمار هو الذي طرأ في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، حيث يرجع ذلك في جانب منه إلى ما حدث حين هب دعاة الإسلام المكافحين الذين ساءتهم التسويات غير المقبولة التي جرت بين الإسلام من جهة وبين الديانة الإفريقية التقليدية من جهة أخرى، فأعلنوا حروبًا جهادية تستهدف رد العقيدة الإسلامية الصحيحة ردًا صارمًا إلى صفائها الأصلي. وأدت معارك الجهاد هذه إلى تكوين دول دينية(ثيوقراطية)

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

فرض فيها الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية على الناس، مما انتهى إلى انتشار اعتناق الإسلام على نطاق واسع. وامتدت هذه الدول الدينية عبر المنطقة السودانية في غرب إفريقيا من السنغال في الغرب إلى غاية مملكة الكانم– برنو(تُعرف حاليًا بشمال نيجيريا) في الشرق.

وكما هو معلوم فقد تواصلت الفتوحات الإسلامية من مصر إلى بلاد المغرب (ثم الأندلس)، وتسلم البربر راية الإسلام من العرب وعبروا بها الصحراء الكبرى ثم تسلمها منهم المجاهدون من السكان المحليين، لاسيما التكرور والفولاني والماندنجو.(٢) فقامت عدة ممالك وإمبراطوريات إسلامية على امتداد الإقليم الذي عرف عند بعض المؤرخين القدامى بـ"بلاد السودان الغربي": إمبراطورية مالي(٣) (حوالي ١١٠٠-١٧٥٤م)، إمبراطورية سنغاي(٤) (١٤٧٣-١٥٩١م)، مملكة الكانم– برنو.(٥) أما فيما يتصل ببلاد الهوسا (شمال نيجيريا)، فقد نشأ المجتمع الهوسي وثنيًا واستمر هكذا على المستوى العام حتى القرن الرابع عشر الميلادي. إلا أنه من المؤكد أن هذه البلاد قد عرفت نوعًا من التوحيد وقدرًا من الإسلام الذي كان يمارس مخلوطًا بالوثنية منذ القرن الثالث عشر الميلادي.(٦)

والجدير بالذكر: أن أولى شذرات الإسلام جاءت إلى بلاد الهوسا من مملكة الكانم– برنو المجاورة لها من الناحية الشرقية، إلا أن المد الإسلامي ذا الأثر الفعال قد وصلها من ناحية الغرب، وفي البدء كان مصاحبًا للحركة التجارية: فأول مجموعة من الدعاة المسلمين ورد ذكرها في كتاب "تاريخ أرباب كانو" هي مجموعة الونقريين Wangarawa، وهم قوم من الماندنجا كانوا يجمعون بين التجارة والدعوة. وقد وصل هؤلاء إلى مدينة كانو في عهد الملك الصالح ياجي بن ثاميا (١٣٤٩-١٣٥٨م) قادمين من ملي Malle (نسبة لمملكة مالي القديمة)، وتمكنوا بمساعدة ذلك الملك من نشر إسلام أكثر نقاءً وعلى مستوى أوسع في كانو وما جاورها. وفي هذا السياق يتحدث أحمد كاني عن إحدى مجموعات الونقريين التي هاجرت إلى بلاد الهوسا في طريقها للحج، وكان فيها حوالي ٣٦٣٠ شخصًا ما بين عالم وقارئ.(٧) ويمكننا تصور الأثر الكبير الذي تركته هذه المجموعة في بلاد الهوسا من ظهور الخلاوي القرآنية والحوزات العلمية التي أوجدت أرضية خصبة للإنتاج الفكري والثقافي فيما بعد.

وفي القرن الخامس عشر، وبالتحديد في عهد الملك يعقوب بن عبدالله برجا (١٤٥٢-١٤٦٣م) وصلت أربع مجموعات من الوافدين إلى كانو، جاءت كلها بغرض الدعوة وبعضها مع التجارة أيضاً. وأهم هذه المجموعات جماعة الفولاني التي قدمت من ملي ضمن هجرة كبيرة بدأت تحط رحالها عند الأطراف الغربية من بلاد الهوسا، على رأسها الشيخ موسى جكلو، الجد الثالث عشر للشيخ عثمان بن فودي. هذا بينما واصلت الهجرة الرئيسية إلى كانو وفيها عدد كبير من العلماء. وقد أجمعت المصادر أن هؤلاء الفولانيين أحضروا معهم كتبًا في علم التوحيد والمذهب المالكي واللغة العربية. وبعدها بعدة سنوات بدأت الأفواج العربية التي أشارت إليها رواية "تاريخ أرباب كانو" بـ"الأشراف"، بدأت تتدفق إلى تلك المناطق.

ومن بين هؤلاء العالم الجليل المغربي الشهير محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني (توفي سنة ١٥٠٤م) الذي وصل إلى كانو في عهد الملك محمد رمفا بن يعقوب (١٤٦٣-١٤٩٩م) على رأس نخبة من العلماء بعد توقف قصير في بلاط مملكة كاتسينا. ولقد تزامن وصول الشيخ المغيلي إلى بلاد الهوسا مع تولي ثلاثة من الملوك في ثلاث من أهم ممالك الهوسا، وهم محمد رمفا في كانو، ومحمد كرو (وبعده إبراهيم ماجي) في كاتسينا ومحمد رابو في ززوZZO (زاريا(Zaria). ويذكر أحمد كاني أن هؤلاء الملوك الثلاثة اعتنوا اعتناءً فائقًا بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية.(٨)

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الإسلام أخذ يتقدم بخطى وئيدة من ممالك الوسط إلى الأطراف، وقد لعب العلماء القادمون من خارج بلاد الهوسا ومجموعة العلماء المحليين الذين تتلمذوا عليهم دورًا مقدرًا في ذلك. ولكن مع ذلك ظلت كثير من الممارسات الوثنية سائدة أيضًا وسط عامة الناس وفي بلاط بعض السلاطين الذين أبقوا عادة الاستعانة بالسحرة والمنجمين سبيلاً للتمكن في سلطانهم. ويبدو أن النشاط الدعوي خلال القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن قد تمكن من توسيع رقعة الإسلام ولكن لم يفلح في إيقاف الممارسات الوثنية التي كانت تمارس جنبًا إلى جنب مع الإسلام حتى كادت تؤخذ وكأنها من الإسلام نفسه. وفي منتصف القرن الثامن عشر عندما شعر العلماء بخطورة هذا الأمر على الإسلام انبرى بعضهم – من أمثال الشيخ جبريل بن عمر الطارقي - للتصدي لهذه الظاهرة وأخذوا يوجهون النقد للسلاطين في تحد سافر لأعراف ذلك العصر. وفي بداية القرن التاسع عشر ذهب الشيخ عثمان بن فودي وشقيقه عبدالله (تلميذا الشيخ جبريل) يعاونهما ابن الأول (محمد بلو) – ذهبوا إلى أبعد من ذلك وأعلنوا الجهاد ضد ممالك الهوسا بهدف "تطهير الدين وتجديده". وبعد أربعة أعوام من المعارك تمكنوا من الإطاحة بجميع النظم القائمة آنذاك وإقامة خلافة إسلامية قائمة على شرع الله، أي الخلافة الصكتية.

استمرت الخلافة الصكتية لقرن كامل من الزمان (١٨٠٤-١٩٠٣م) وشملت كل شمال نيجيريا وأجزاء من جنوبها، إضافة إلى رقعة واسعة من جمهوريتي النيجر والكامرون الحاليتين. وقد اجتهد علماء هذه الخلافة في ترسيخ قيم الدين الحنيف وتربية الأجيال عليه مع تركيز خاص على نشر العلم والمعرفة. لذلك عندما سقطت هذه الخلافة في أيدي الاستعمار البريطاني لم تجد الإرساليات التبشيرية موطئ قدم لها وسط المسلمين فيها. وقد حرص المشايخ المسلمين المحليين طيلة فترة الاستعمار على المحافظة على تعاليم الشيخ عثمان وحماية أبنائهم من التأثر بسلبيات الثقافة الغربية. وبعد نيل نيجيريا الاستقلال سنة ١٩٦٠م عمل السيد أحمدو بيلو،

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حفيد الشيخ عثمان وأول رئيس وزراء شمال نيجيريا – عمل على ربط شمال نيجيريا بالعالم الإسلامي عن طريق بعث الطلاب لتلقي العلم في البلاد العربية الإسلامية، وبالأخص السودان ومصر والسعودية. ولهذا الرعيل الأول من هؤلاء الطلاب الفضل في إضفاء الصبغة الإسلامية في كل الأمور المتعلقة بالنشاط الفكري وبالتعليم والقضاء والإدارة بصورة عامة في شمال نيجيريا إلى يومنا هذا.

تجدر الإشارة إلى؛ أنه على الرغم مما حققه الإسلام من تقدم قبل مجيء الاستعمار الامبريالي في غرب إفريقيا، فإن العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر شهدت تلاشي ودمار بعض الممالك الإسلامية في المنطقة.

## ثانيًا: نبذة عن تاريخ الوجود العربي والإسلامي في إقليم شرق إفريقيا

إن صلة العرب بالساحل الشرقي لإفريقيا أقدم وأعرق من صلتهم بغربي إفريقيا، ويرجح بعض الباحثين أن استيطان العرب في إفريقيا الشرقية امتد في العصور القديمة أي إلى ما قبل التاريخ الميلادي، حيث وصلوا حتى سوفالا جنوبي نهر الزمبيزي، وتواصلت هجراتهم إلى شرق إفريقيا خاصةً في القرن السابع والثامن الميلادي على أثر نفي الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين سنة ٧٣٩م.[٩] وحسب بعض المصادر المتخصصة، فإن الهجرات العربية الإسلامية لم تتوقف بل تواصلت خلال القرن الثامن والتاسع للميلادي، ونتج عنها بناء بعض المدن الساحلية الهامة، مثل ممباسا وزنجبار وكلوا وطابورا، ويمثل العمانيون أول وأهم عناصر هذه الهجرات وتبعتهم مجموعة من الشيرازيين الذين قدموا في القرن العاشر الميلادي. وهكذا توالت هجرات العرب وغير العرب من المسلمين، وتجاوزت دوافع هذه الهجرات الحدود التجارية فأصبحت تحركها النزعات السياسية في البلاد الأم، وكان اعتناق السكان الوطنيين للدين الإسلامي نتيجة للعلاقة الوثيقة التي نشأت بينهم وبين ضيوفهم، كذلك انتشر الإسلام في هذه المنطقة بحكم الزواج والامتزاج بين الطرفين.[١٠]

ثم شهدت منطقة شرق إفريقيا ولمدة قرنين من الزمن (١٥٠٠/١٧٠٠م) حقبة جديدة من التاريخ، وبعامل الجغرافيا أيضًا، فقد برز البرتغاليون في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وفي سعيهم للوصول إلى الهند رأوا في ساحل شرق إفريقيا موقعًا استراتيجيًا جذابًا يسيل اللعاب، فدخلت المنطقة في فوضى، بعد أن قام البرتغاليين بسلب العرب ما كانوا يتمتعون به من سيطرة ونفوذ على المحيط الهندي وأدت سياسة الاحتكار التجاري التي أنتهجها أولئك القادمون الجدد إلى خراب المدن الساحلية وتدهورها.[١١]

وعند حلول سنة ١٥٠٩م، أخضعت حملة عسكرية برتغالية بقيادة الفونسو ألبوكيرك وبصورة منظمة جميع المدن والمراكز التجارية التابعة للعرب وتحكمت في طرق التجارة المتفرعة منها وأدارت البرتغال طرق التجارة بين القارات بنفسها ورخصت للسفن الهندية والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الإفريقية والأسيوية. وبقيت المنطقة تحت سيطرتهم حتى استردها منهم العمانيون في نهاية العقد الثاني من القرن الثامن عشر، وتعتبر الحقبة التالية، وقوامها أيضًا قرنان من الزمان، أهم حقب التاريخ العربي الإسلامي في سواحل شرق إفريقيا، حيث توسعت نفوذ العمانيين السياسية والتجارية والثقافية في هذه المنطقة لدرجة جعلتهم ينقلون عاصمتهم من مسقط إلى زنجبار١٨٣٧م. ولم تنقض هذه الحقبة إلا وقد غطت المؤثرات العربية جميع مناحي الحياة: اللغة، والثقافة، والعادات والتقاليد.

غير أن الأيام السعيدة لسلطان زنجبار وللعرب والمسلمين أجمعين لم تستمر بسبب ما وقع للمنطقة في مطلع القرن العشرين، من تنافس استعماري أوروبي كبير، فأصبحت تحت سيطرة ألمانيا وبريطانيا، ودخلت الثقافة العربية الإسلامية فيها في تنافس مع الثقافة الغربية ذات الصبغة المسيحية. وفي أواخر سنين الاستعمار أخذت تنمو وسط السكان المحليين روح العداء ضد كل من هو عربي، وبعد شهر واحد فقط من إعلان جزيرة زنجبار الاستقلال عن الاستعمار البريطاني اندلعت ثورة زنجبار الاشتراكية التي قادها حزب الأفروشيرازي (١٢ يناير ١٩٦٤م)، وعلى إثرها هرب السلطان العماني لاجئًا إلى لندن. ولقد كان هذا الحدث مأساة حقيقية في تاريخ الوجود العربي الإسلامي في شرق إفريقيا، لأن هذه الثورة التي قامت ضد السلطان العماني وأعوانه، كما ذكر سيد حامد حريز "امتدت إلى العرب من غير تمييز، وبذلك قتلت أعداد كبيرة من العرب، ولاذت بالفرار أعداد أكبر، وعاش من بقي بالجزيرة من العرب في عزلة سياسية واجتماعية إلى يومنا هذا.[١٢]

## ثالثًا: التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليمي شرق وغرب إفريقيا

رأينا فيما تقدم مختلف الجوانب الفكرية والثقافية المعبر عنها باللغات المحلية (السواحيلية والهوسا على وجه الخصوص) والتي تطورت عن الاتصال العربي الإسلامي بإقليمي شرق وغرب إفريقيا، سواء أكان ذلك الاتصال مباشرًا (شرق إفريقيا) أو غير مباشر (غرب إفريقيا). والآن يحق للقارئ أن يسأل: أين موقع التراث الفكري الإسلامي المعبر عنه باللغة العربية في الخارطة الأدبية والفكرية التي تم عرضها أعلاه؟ كيف نشأ هذا التراث (إن وجد) ومن هم رواده؟.

إذا استرجعنا ما ذكرناه حول قدم الصلات بين الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا وكثافة الوجود العربي في حقب التاريخ المختلفة في هذا الإقليم والوصول المبكر للإسلام فيه في مقارنة بإقليم غرب إفريقيا، نتوقع وجود قدر من التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في الإقليم الأول يتناسب مع حجم ودرجة هذه المعطيات. ولكن ما نجده في الواقع صورة معكوسة تمامًا عما كنا نتوقعه، أي شحًا ملحوظًا في الإنتاج الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليم

شرق إفريقيا مع ضعف قيمته العلمية، وغزارته في إقليم غرب إفريقيا مع رفعة مستواه العلمي.

**١/٣- التأليف باللغة العربية في شرق إفريقيا:**

لم يشر الباحث كنايرت - ويعتبر أهم مرجع في الأدب السواحيلي – إلى أي عمل باللغة العربية نظمًا كان أو نثرًا يرجع إلى القرون الماضية أنجزه مؤلف سواحيلي حتى من ذوي الجذور العربية، دعك من السكان المحليين. وقد أكد سيد حامد حريز إلى أن الشعراء في شرق إفريقيا قد نظموا باللغة العربية في أغراض مختلفة ولكن دون الإشارة إلى شاعر بعينه،[١٣] مما قد يوحي بمحدودية هذا الجانب من النشاط. وبما أننا بصدد المقارنة مع ما هو حادث في إقليم غرب إفريقيا، كان يهمنا أيضًا معرفة هوية هؤلاء الشعراء، الذين نظموا أولى قصائدهم باللغة السواحيلية،[١٤] والحقيقة أن التي تم العثور عليها في إقليم شرق إفريقيا كانت من نظم شعراء ذوي أصول عربية أو فارسية.

أما في النثر باللغة العربية فلم يورد سيد حامد حريز في كتابه الجامع حول المؤثرات العربية في الثقافة السواحيلية، لم يورد أيَّ عمل في هذا السياق. وقد أورد عبدالرحمن أحمد عثمان في كتابه "المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحيلية" أربعة كتب وخمس مخطوطات لمؤلفين من داخل المنطقة قيد الدراسة أو ما جاورها. والمؤلفون هم:[١٥]

- الشيخ سعيد بن علي المغيري.
- الشيخ محي الدين الكلوي.
- سالمة بنت السيد سعيد بن سلطان.
- الشيخ إدريس بن محمد القادري.
- برهان بن مكلا القمري.
- عبدالله محمد باكثير الكندي.
- عبدالله بن زين الوهط السقاف.

بالإضافة إلى راشد البراوي الذي كتب عن الصومال الجديد. ويلاحظ من خلال هذه الأسماء أن أغلبية هؤلاء المؤلفين ينحدرون من أصول غير محلية، كما يلاحظ غياب الأعمال الفكرية المتعمقة في العلوم الإسلامية كالتوحيد والفقه والتفسير وعلم الكلام أو أعمال في اللغة العربية على شاكلة المؤلفات التي تم تأليفها باللغة في غرب إفريقيا. ومن المعروف أن أسرتي النبهاني والمزروعي قد أسهمتا كثيرًا في دفع عجلة الحركة الفكرية في إقليم شرق إفريقيا، وألف بعض أفرادها كثيرًا باللغة السواحيلية، وكنا نتوقع أن نقف على أعمال لهم باللغة العربية أيضًا.

**٢/٣- ازدهار الحركة العلمية في إقليم غرب إفريقيا:**

كان للعلماء الذين رافقوا الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني- المذكور آنفًا– أو الذين اتبعوا أثره إلى بلاد الهوسا خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الفضل في نشأة الحركة العلمية في تلك البلاد. فمع بداية القرن السادس عشر بدأت دوائر صغيرة للعلماء المحليين في النمو والازدهار حتى أضحت مراكز جذب للمهاجرين من الأقاليم الإسلامية الأخرى، وبالأخص مملكة الكانم– برنو وشمال إفريقيا ومصر. فهؤلاء العلماء المهاجرون لبلاد الهوسا أو الذين كانوا على اتصال بها يمثلون في الحقيقة الجذوة التي اندلعت منها حركة الفكر والأدب باللغة العربية في تلك البلاد، والتي استمرت في النمو والتطور إلى أن انتهت بـ "الثورة الفكرية" التي صاحبت حركة الجهاد وقيام الخلافة الصكتية في العقد الأول من القرن التاسع عشر.

وعلى الرغم من أن الفترة من بداية القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر لم تنجب من العلماء المحليين المرموقين سوى القليل، إلا أن أعمال هؤلاء العلماء – بمقاييس ذلك العصر– كانت على درجة من الجودة تستحق الوقوف عندها. فمن هؤلاء العالم الكنوي عبدالله ثقة (سكا) الذي ألف منظومة بعنوان "العطية للمعطي" بيَّن فيها الأوجه المختلفة للعبادات. وتعتبر هذه المنظومة بداية للتأليف المحلي بالنظم ونموذجا انتشر على شاكلته هذا الفن في كل المناطق.[١٦] ومن هؤلاء أيضًا العالم الكشناوي ابن الصباغ المعروف بـ "دان مرينا" (توفي سنة ١٦٥٥م) الذي قام لأول مرة بشرح وتحليل قصيدة العشرينية للفزازي في كتاب له بعنوان "الوسائل المتقبلة". ومن أعماله أيضًا التي اشتهر بها كتابه "مزجرة الصبيان" الذي بيَّن فيه فروع العلم والمعرفة التي تناولها وتذوقها علماء عصره في بلاده، ومنها الشريعة والتوحيد والحديث والنحو والفلك وفنون التلاوة وعلم العروض والقوافي والفلسفة. ومن مشاهير كاتسينا أيضًا، الشيخ ابن العارف (دان مسنى)، ويذكر الشيخ محمد بلو بن فودي أن لابن العارف دراسات وأبحاث تدل على وفرة علمه، منها "النفحة العنبرية في شرح العشرينية"، و"بزوغ الشمسية في شرح العشرينية"، و"ازدهار الربا في أخبار يوربا".[١٧] ومن علماء تلك البلاد في ذلك العصر الشيخ هارون الزكزكي، شيخ الشيوخ الفلاتي، كما يشير إليه محمد بلو. وله قصائد وتواليف منها نظمه على رواة البخاري، أي رواية الفروع عن الأصول. ومنهم أيضًا الشيخ على جب، صاحب الشرح على الكبرى والشرح على لامية الأفعال. هؤلاء هم مشاهير علماء ذلك العصر، ولا شك أن هناك كثيرًا غيرهم ممن هم دون مستواهم.

إن الخلل الاجتماعي والروحي الذي أصاب مجتمع بلاد الهوسا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قاد إلى ظهور نوع جديد من الكتابات تنتقد المجتمع لشدة تراخيه في الممارسات الإسلامية مع خلطها بالممارسات المجوسية، وتنتقد الحكام علنًا لجورهم وخروجهم عن جادة الطريق، وتدعو إلى النهوض لتطهير الدين وإصلاح المجتمع. وأشهر رواد هذا النوع من الأدب الشيخ جبريل بن عمر الطارقي بقصيدته "شفاء الغليل". ثم تسلمت الراية منه مجموعة العلماء الذين قادوا حركة الجهاد، وهم ابنا محمد فودي – عثمان وعبدالله – وأبناؤهما وأصحابهما وتلامذتهما. وقد كان التفقه في الدين سمة متوارثة في أسرة فودي، إلا أن عقد

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

هؤلاء المذكورين النية للقيام بأمر إصلاح المجتمع مع كل ما يترتب على ذلك من مجابهة من يسمونهم بـ"علماء السوء" المتحالفين مع الملوك – كل هذا كان مدعاة لهم للتسلح بمزيد من العلم والتعمق فيه.

وقد كان هذا بالفعل ديدنهم، إذ يذكر الشيخ عبدالله بن فودي في كتابه "إيداع النسوخ من أخذت من الشيوخ" خمسة عشر من مشاهير العلماء الذين أخذ عنهم شتى فنون العلم والمعرفة داخل بلاد الهوسا وخارجها، رغم ذلك يختم بقوله "الشيوخ الذين أخذت عنهم لا أحصيهم الآن ولكن هؤلاء مشاهيرهم...ومن الشيوخ الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيقي عثمان بن محمد... وقد تركني أبي في يده بعد قراءة القرآن وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فقرأت عليه العشرينيات والوتريات والشعراء الستة وأخذت منه علم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها وغيرها، وأخذت عنه الأجرومية والملحة والقطر ونحوها وشروحها، وأخذت منه علم التصوف الذي للتخلق والذي للتحقق ما استغنيت به إن شاء الله عن غيره. وأخذت منه كتب الفقه ما يعرف به فرض العين مثل الأخضرية والعشماوية ورسالة بن أبي زيد وغيرهما، وأخذت عنه تفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القرآن مراراً لا أعرف قدرها وأخذت منه علم الحديث دراية العراقي ورواية البخاري ما مرّنني على غيرها، وأخذت منه علم الحساب القريب منه واليسير وحصل لي بحمد الله التبصر في الدين من فيضان نوره ومن تواليفه المفيدة، العربية والعجمية. فما ألف كتاباً من أول تأليفاته إلى الآن إلاّ كنت أول من نقله غالباً".

لقد أخذ هؤلاء القادة ذلك الكم الغزير من العلم واستوعبوه ووظفوه للتصدي لقضايا مجتمعهم الملحة، فكان إنتاجهم منه بقدر غزارة ما اكتسبوه أو أكثر، وكل ذلك رغم انشغالهم بحركة الجهاد وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة. فخلَّف لنا أفراد الأسرة الفودية (الشيخ عثمان وعبدالله ومحمد بلو والمنحدرون منهم) وحدهم ما جملته ٧٢٣ عمل باللغة العربية فقط، تتراوح من منظومة طويلة إلى مجلد ضخم، تفاصيلها كما يلي:[(١٨)]

- الشيخ عثمان بن فودي: ١٥٤ عمل، أهمها "بيان وجوب الهجرة على العباد".
- الشيخ عبدالله بن فودي: ١١٢ عمل، أهمها "البحر المحيط في النحو" في ٤٠٠٠ بيت على نمط ألفية ابن مالك، وكتاب "صفاء التأويل في معاني التنزيل"، وهو كتاب تفسير للقرآن الكريم.
- الشيخ محمد بلو بن فودي: ١٦٢ عمل، أضخمها "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور".

وقد غطت هذه الأعمال كل فنون العلوم الإسلامية وضروبها تقريبًا، وتناول بعضها موضوعات وقضايا خاصة بمجتمعهم الضيق، كما كتب الشيخ محمد بلو في الطب النبوي والطب الحديث (بمعايير عصره). ولعل أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق ما كتبه الشيخ عبدالله بن فودي في اللغة العربية، وأعني مؤلفه المذكور "البحر المحيط في النحو" ومؤلفه الآخر "الحصن الرصين في علم التصريف" (١٠٣٦ بيت)، وديوانه "تزيين الورقات بما لي من الأبيات" الذي يحوي قصائد من عيون الشعر العربي.

يجب ألا يفهم مما تقدم أن التأليف باللغة العربية في فترة الخلافة الصكتية كان محصورًا في الأسرة الفودية. فإذا عدنا إلى لغة الأرقام مرة أخرى نجد أن جملة ما تم العثور عليه من مخطوطات ومطبوعات باللغة العربية منذ فترة الفوديين إلى سنة ١٩٩٥م في المساحة المعروفة سابقًا ببلاد هوسا (من مشارف برنو إلى الحدود الغربية لإمارة صكتو) قد بلغ ١٥٩٤م عمل ما بين قصيدة ومجلد ضخم (يدخل في ذلك أعمال الفوديين أيضًا). وهذا العدد يكفي للاستدلال على أن التأليف باللغة العربية أضحى تقليدًا راسخًا في شمال نيجيريا. ولا ننكر أن نظام التعليم المدرسي القائم على النظم الغربية قد أثر سلبًا على حيوية هذا التقليد، إلا أن تمسك مجتمع شمال نيجيريا بالخلاوي والدهاليز التقليدية قد ساعد كثيرًا على استمرارية هذا التقليد واستدامته. فقائمة مؤلفات الشيخ ناصر كبرا الذي توفي في كانو قبل أقل من عشرة أعوام تقف شاهدة على ذلك، إذ ضمت حوالي ١٥٠ عمل باللغة العربية.

## رابعًا: السيطرة الاستعمارية والثقافة العربية الإسلامية في إقليمي شرق إفريقيا وغربها

من المتفق عليه أنه قبل وصول القوى الاستعمارية الأوروبية إلى إفريقيا، كان الإسلام قد حقق تقدمًا كبيرًا في إقليمي شرق إفريقيا وغربها. وكان من بين أهم مظاهر هذا التقدم أن دخلت كلمات ومفاهيم عربية كثيرة في عدد من اللغات الإفريقية والتي أهمها اللغة الهوسوية في إقليم غرب إفريقيا واللغة السواحيلية في إقليم شرق إفريقيا، مما أدى إلى إثراء هذه اللغات. وفي هذا السياق، اتخذ الحجاج العائدون من الجزيرة العربية طرازًا جديدًا من الملابس، وأدت جهودهم وجهود علماء المسلمين وأتقيائهم المقيمين والزائرين إلى بدأ تأثر الإفريقيين بالثقافة العربية الإسلامية تأثرًا كبيرًا. غير أن مجيء القوى الاستعمارية في منتصف القرن التاسع عشر أدى إلى تدهور وتراجع النفوذ الإسلامي في الإقليمين (الموضع الدراسة).

والجدير بالذكر: أن موقف الحكومات الاستعمارية من الإسلام كان مختلطًا لا يسير على نهج واحد. ففي غرب إفريقيا، كانت فرنسا في أول الأمر ترى أن الإسلام دين أكثر استنارة من الديانة الإفريقية التقليدية. وأن النظم الإسلامية تمثل نظمًا ومؤسسات اجتماعية متقدمة، فاستخدمها الاستعمار الفرنسي لمصلحته الاستعمارية التوسعية. وانطلاقًا من هذا، سمحت الإدارة الاستعمارية مع بدايات التوسع الأولى بقيام المحاكم الإسلامية، وتمتع الحكام المسلمون بقدر من السلطة في بعض المناطق، كما استخدم رجال الإدارة الاستعمارية المسلمين في الوظائف الدنيا كإداريين ووكلاء وكتبة، وأدى ذلك إلى احتكاك المسلمين عن قرب بالشعوب

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الإفريقية والى إتاحة الفرصة للأفارقة المتمسكين لعاداتهم وتقاليدهم.

غير أن الفرنسيون بعد أن ركزوا حكمهم، بدؤوا يفرضون ثقافتهم على سكان مستعمراتهم من المسلمين وغير المسلمين على السواء، اعتقادًا منهم بأن عليهم واجبا يلزمهم برفع مستوى معيشة رعاياهم في المستعمرات الفرنسية وعلى الخصوص في غرب أفريقيا، عن طريق نقل (مزايا) الثقافة الفرنسية إليهم.[١٩] ولكي يتمكن الفرنسيون من مناهضة انتشار الإسلام والثقافة العربية مناهضة فعالة، فحاولوا إيجاد قوة مضادة لها عن طريق تعزيز الديانة التقليدية وصياغة القوانين العرفية الإفريقية في مدونة رسمية. غير أن الفرنسيون كانوا أكثر ألفة بالإسلام منهم بالديانة الإفريقية التقليدية. رغم خوفهم من الأول وعدائهم له، وعندما فشلوا في تحقيق أهدافهم، عاودوا التعامل مع المسلمين وأنشأوا معاهد لدراسة وتوثيق الحياة والمعتقدات والممارسات الإسلامية.

أما في إقليم شرق إفريقيا، نجد أن البريطانيين قامت سياستهم تجاه الإسلام على الاعتقاد بأنهم يستطيعون اجتذاب تعاون الحكام المسلمين. فكانوا على استعداد وتلهف لضمان حرية العبادة للمسلمين بشروط معينة، لشدة رغبتهم في رؤية الإسلام في شرق إفريقيا وقد فصم عن روابطه الدولية وتجرد من خصائصه العالية. وكان الأمر الذي تتوق السلطات الاستعمارية إلى منعه بصفة خاصة هو نشوء حركة إسلامية جامعة شاملة تشكل تهديدًا لسلطانها، وقد تحول هذا الشبح المخيف إلى حقيقة واقعة حين دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، وأصدر السلطان العثماني – بصفته خليفة المسلمين جميعًا– أمراً بالثورة ضد الكفرة الأوروبيين.[٢٠] غير أن الثقافة العربية الإسلامية في شرق إفريقيا حافظت على مغزاها ومكانتها في وجه العناصر المتنامية للفردية، والمسيحية الغربية، طيلة فترة التواجد الاستعماري البريطاني. فالثقافة العربية الإسلامية قدمت منظورًا بديلاً إلى اهتمامات الإنسان الإفريقي في شرق إفريقيا، كما أنها غير منفصلة عن حياته اليومية إلى يومنا هذا.

## خاتمة

وبناءً على ما تقدم، يخلص الدارس إلى الاستنتاجات التالية:

١- أن إقليم شرق إفريقيا قد عرف المؤثرات العربية الإسلامية منذ وقت مبكر بسبب الهجرات العربية الاستيطانية المباشرة من الجزيرة العربية (وبلاد الفرس) ذات الدوافع التجارية والسياسية، انعكست هذه المؤثرات في الأدب الشفهي المعبر عنه باللغة السواحيلية وفي العادات والتقاليد، دون أن ينتج عن ذلك تطور تقاليد أدبية وفكرية باللغة العربية وسط السكان المحليين.

٢- أن بلاد الهوسا في غرب إفريقيا قد وصلها الإسلام في القرن الرابع عشر عن طريق الهجرات الداخلية ذات الدوافع الدينية (دعوية) وتطورت إثرها مراكز إشعاع فكري قوامها سلسلة من العلماء المحليين خلَّفوا تراثًا عربيًا إسلاميًا قيمًا باللغة العربية. إذن يمكن القول أن مجرد وجود صلات مع الجزيرة العربية (مهد الإسلام والعروبة) لا يقود بالضرورة إلى ازدهار الفكر العربي الإسلامي في بقعة ما في الأرض، ولكن الأهم من ذلك طبيعة هذه الصلات ودوافعها. فالإسلام وتوابعه من نشاط دعوي وحركات جهادية يمثل المرتكز الأساسي الذي يقوم عليه التاريخ الوسيط لإقليم غرب إفريقيا، وللعلماء دور كبير في صناعة هذا التاريخ.

٣- تعتبر اللغة العربية عند هؤلاء العلماء وجهًا من أوجه الإسلام، لها من القدسية – باعتبارها لغة الإسلام والمفتاح إلى العلوم الإسلامية -ما يجعل تعلمها والكتابة بها من الواجبات، ربما اهتداءً بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) "تعلموا العربية فأنها من دينكم". لذلك لا غرو إن ترك لنا هؤلاء العلماء تقاليد راسخة ومستدامة في مجال التأليف بهذه اللغة.

٤- أن عدم تطور تقاليد أدبية عربية إسلامية باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا قد أثر سلبًا على وضع الثقافة العربية الإسلامية في المجتمع السواحيلي المعاصر، ومن الأمثلة لذلك عدم الاهتمام بالدراسات العربية الإسلامية على مستوى الجامعات. فجامعة دار السلام ليس بها شعبة للغة العربية، وأن شعبة اللغة العربية بجامعة نيروبي ظلت إلى عهد قريب تعاني من الضعف والإهمال، هذا بينما نجد في الطرف الآخر أن قسم اللغة العربية كان من أول الأقسام التي أنشئت في الجامعات الكبيرة في شمال نيجيريا.

دورية الكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

## الهوامش:

(١) قام السلطان السيد سعيد بنقل عاصمته من عمان إلى زنجبار عام ١٩٣٧.

(2) for more details see Anderson, John: ***West Africa, East Africa in the nineteenth and twentieth century's***, O.U.P, London, 1972.

(٣) امتد حكم هذه الإمبراطورية التي شكلها شعب الماندنجو على جمهورية مالي الحالية وعلى السينغال الشرقي وشمال كل من فولتا العليا(بوركينافسو الآن) والداهومي (البنين الآن) والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا.

(٤) سميت بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة سنغاي، وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية في الجنوب، ثم أخذت تنتقل إلى الشمال مع النيجر، وفي القرن السابع للميلاد كانت تمتد مساكنها حول النيجر بحوالي ١٥٠ كلم، وتمتهن مهنة صيد الأسماك وزراعة الدخن، وفي هذا الوقت بدأ انتظام شعبها تحت سلطة واحدة. راجع للمزيد من التفاصيل: عبد القادر زبادية: **الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩، ص:٢١.

(٥) ظهرت هذه المملكة في المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد ونهر الكانوري والتي تعرف اليوم بجمهورية التشاد والقسم الشمالي من نيجيريا، وقد شكلها شعب البولالا قبل دخول الإسلام إلى المنطقة، وتشير بعض الدراسات الحديثة أن مملكة الكانم– برنو مع نهاية القرن العاشر الميلادي قد أسلمت كليًا. انظر:

***Encyclopedia of Islam***, London, 1950, pp:540 – 541.

(6) Hiskett, M: **The historical background to naturalization of Arabic loan words in Hausa**, African Language Studies, London, 1965 , p. 21.

(٧) أحمد محمد (كاني): **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**، دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص: ٣٣.

(٨) أحمد محمد (كاني): مرجع سابق، ص: ٣٥-٣٦.

(٩) حسن إبراهيم حسن: **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى**، معهد الدراسات العربية العالمية، القاهرة ، ١٩٥٧، ص: ١٢٦ - ١٢٧.

(١٠) محمد أحمد (المعمري): **عمان وشرق إفريقيا**، دار التراث القومي والثقافة، عمان، ١٩٧٩، ص: ٩٥.

(١١) ل.و.هولنجزوورث: **زنجبار (١٨٩٠-١٩١٣م)**، ترجمة دكتور حسن حبشي، ط.١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص:٢.

(١٢) انظر للمزيد من التفاصيل: حريز سيد حامد: **المؤثرات العربية في الثقافة السواحيلية في شرق إفريقيا**، دار الجيل، بيروت ، ١٩٨٨، ص:٤٦.

(١٣) سيد حامد حريز: مرجع سابق، ص: ١١٢.

(١٤) تنتشر في شرق إفريقيا ويتكلمها أكثر من أربعين مليونا(٤٠) من البشر، ويمتد نطاق انتشارها إلى جمهورية الصومال وكينيا وأوغندا وتنزانيا والموزمبيق وشرقي الكونغو(كينشاسا) وجزر القمر وشمالي نياسالاند (ملاوي اليوم) وتتكلمها كذلك أقسام صغيرة في روديسيا الشمالية(زامبيا اليوم). وأصل الكلمة يأتي من اللغة العربية للتعبير عن أصل نشأة اللغة على الساحل أو السواحل. وتنقسم آراء العلماء والباحثين بشأن تاريخ اللغة، فيرى البعض أن أصلها يرجع إلى شعب يسمى السواحيلي عاش في فترة الحكم الشيرازي(٩٧٥بعد الميلاد) فيما بين مدينة كيلوا وباجاميو. ويرى البعض الآخر أنها نشأت في منطقة لامو ثم امتدت بعد ذلك جنوبًا، وفي منطقهم أن المهاجرين العرب تزوجوا من الأفريقيات واستعملوا كلمات عربية وكلمات من لغات البانتو للحديث اليومي مع زوجاتهم وأولادهم، ومن ثم ظهرت السواحيلية من هذا الخليط اللغوي. ويرى فريق آخر أن هذه اللغة هي خليط من اللغات العربية والفارسية ولغات أوروبية أخرى. ويرى فريق من الباحثين في جامعة دار السلام أن أصل اللغة أقدم من هذه الآراء جميعًا فقد نشأت على ألسنة الأفريقيين الذين عاشوا في كينيا وتنجانيقا زنجبار الثناء رحلاتهم ومبادلاتهم التجارية عبر المحيط الهندي، وان اللغة تداولت على ألسنهم قبل وصول العرب والإغريق والبرتغاليين. للمزيد انظر: عبد الملك (عودة): **الحزب الواحد والتطبيق الاشتراكي في تنزانيا**، مجلة الساسة الدولية، العدد الثامن، ١٩٦٧.

(١٥) انظر للمزيد من التفاصيل: عبدالرحمن أحمد عثمان: **المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحيلية**، دار جامعة إفريقيا العلمية للنشر، الخرطوم، ٢٠٠١، ص:٨٠-٨٧.

(16) Hiskett, M: ***History of the Hausa Islamic Verse***, SOAS, London, 1975, p:15.

(١٧) محمد بلو بن فودي: **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، دار ومطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٤، ص: ٥٢.

(18) for more details see: Hunwick, J.O: ***Arabic Literature of Africa*, The Writings of Central Sudanic Africa**, Vol 2, 1995, Leiden.

(١٩) أ. آدو بواهن: **تاريخ إفريقيا العام**، المطبعة الكاثوليكية(اليونسكو)، بيروت، ١٩٩٠، ص:٥٢١، ٥٢٨.

(٢٠) نفسه، ص:٥٣٠.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449